فصل فى نسبه

نسب أبى العلاء:

هو أبو العلاء أحمد بـن عبد الله بن سليمان بن محمـد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم أبن أرقم بن النعمان بن عدى بن غطفان بن عمرو بن بريخ بن خزيمة بن تميم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قـضاعـة التنوخى المعرى. هكـذا ساق نسـبه ابن خلكان، وهو أصح مـا وجدناه بالمعارضة على ما فى كتب الأنساب، فإن فيما ذكره ياقوت فى إرشاد الأريب إسقاطًا لبعض الأسماء، واضطرابا فى ترتيب بعـضها، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حرف منها، فإن خزيمة بن تيم الله جاء فى النسخة المطبوعة - ببولاق: جذيمة بالجيم والذال المعجمة. وما نص عليه فى كتب اللغة والأنساب خزيمة بالخاء والزاى مصغراً وتيم الله بن أسد هكذا فى جميع مـا وقفنا عليه من الكتب، وجاء به أبو العـلاء فى "سقط الزائد" تيم اللات، فى قوله:

سألته قبل يوم السير مبعثه إليك ديوان تيم اللات ماليتا

وقد يكون هذا تحـريفًا فى النسـخة إلا أن من خبـر شعـر أبى العلاء، ومذهبه فى تكلفه الصناعة والتجنيس، رجح أنه ما أتى بقوله ما ليت، أى ما نقص بعد قوله اللات، إلا إرادة للتجنيس. والله أعلم. وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير: تيم الله المذكور مـقدمًا، وهو مردود بما ذكره الشارح فى سياقه نسبه عند شرح البيت. على أن فيما ذكره ابن خلكان ما لا

يسكت عنه أيضًا، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه فى النسخة المطبوعة ببولاق، والنسخة المطبوعة بباريس. ونقل ابن الوردى فى تاريخه عبارة ابن خلكان فأسقط أحمد بن سليمان من سلسة النسب ويوافقه ما فى "الكوكب الثاقب" لعبد القادر بن عبد الرحمن السلوى إلا أنه أسقط محمد ابن سليمان بدل أحمد.. وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد فى ابن خلكان فيه زيادة اسمين ربما سبق بهما قلم الناسخ.

وجده الأعلى قضاعة بن مالك أبو وحى من اليمن ينتهى نسبه إلى قحطان هذا هو المشهور وزعم نساب مضر أنه قضاعة بن معد بن عدنان، وأن مالكا زوج أمه، والنسب إلى زوج الأم عادة معروفة عند العرب، ولعلماء الأنساب فى ذلك اختلاف كثير، ولهذا قال محمد بن سلام البصرى النسابة لما سئل: أنزار أكثر أم اليمن؟ فقال: إن تمعددت قضاعة فنزار أكثر، وإن تيمنت فاليمن. وعلى القول الأول قول بعضهم:

قضاعة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المنكر

وعلى القول الثانى قول الكميت الأسدى يخاطب قضاعة:

فإنك والتحول عن معد كحالية تزين بالعطول

تغايظ بالتعطل جارتيها وبالأحماء تبدأ والحليل

فمهلا يا قضاعة لا تكونى كقدح خر بين يدى مجيل

وما من تهتفين به لنصر بأقرب جابة آلك من هديل

وسمى قضاعه لانقضاعه عن قومه مع أمه، أى انقطاعه عنهم، أو من قضعه، أى قهره. وقيل بل هو اسم منقول، وأصل القضاعه الفهد.

والتنوخى نسبة إلى تنوح كصبور، وتشديد النون خطأ، وهم قبيلة من اليمن من قضاعة، سموا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا، وتنخوا بمكان فى الشام أى أقاموا فيه، ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعمة ودوس الذين تنخوا بالبحرين، والاختلاف فى ذلك كثيراً أيضاً. ونقل عن أبى عبيد أنهم تنخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد، وعلى مالك بن فهم عم مالك بن زهير. وذكر الحمدانى أن المعرة من بلاد الشام هى صليبية تنوخ، بمعنى أن بها جمعهم المستكثر. وفى "إرشاد الأديب". لياقوت أن تيم الله بن أسد هو مجتمع تنوخ من أهل معرة النعمان.

وقال أبو يعقوب النحوى فى شرح "سقط الزند" أن تيم الله هو مجتمع تنوخ فى النسب؛ ولم يخص أهل المعرة. ويوافقه ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان، إلا أن أبا يعقوب سماه تيم اللات كما قدمنا. وكان شعار تنوح فى حروبهم (واصل واصل) وإليه أشار أبو العلاء فى لزوميانه بقوله:

فمن هذه البرية فى الأرض فما غير شرها لك حاصل

فشعارى قاطع وكان شعاراً لتنوخ فى سالف الدهر واصل

والشعار: العلامة فى الحرب، وفى الحديث أن شعاراً أن أصحاب رسول الله ﷺ كان فى الغزو: (يا منصور أمت أمت) وهو تفاؤل بالنصر بعد الإماتة. واستشعر القوم إذا تداعوا بالشعار فى الحرب.

والمعرى نسبة إلى معرة النعمان، وهى بلدة الشام من أعمال حمص بين حلب وحماة، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم، بل نسبت فيما ذكر للنعمان بن بشير الأنصارى، لأن ولداً له مات وهو مجتاز بها، فدفنه فيها وأقام أياماً حزينا، فنسبت إليه لذلك. قال ياقوت فى معجم

البلدان. وهذا فى رأيى ضعيف لا تسمى بمثله مدينة، والذى أظنه أنها مسماة بالنعمان الملقب بالساطع. قلت وهو النعمان بن عدى، أحد أجداد المعرى المذكورين فى نسبه، والذى ذكره ياقوت مقبول. فإن تسمية بلدة باسم أحد قطانها المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها. وذهب الشريشى فى شرح المقامات إلى أنها أضيفت لجبل مطل عليها اسمه النعمان، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل.

ومن شعر أبى العلاء فيمن عيره باسم بلده:

يعيرنا لفظ المعرة إنها ... من العر قوم فى العلا غرباء

وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس، لا، بل فى الرجال غباء

وذو نجب إن كان ما قيل صادقًا ... فما فيه إلا معشر نجباء

أى إن كان اسم البلد له تأثير على ساكنيه، على ما زعم هؤلاء الزاعمون فيلزم منه أن التثريب لاحق "لسكان يثرب، وهى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام. ويلزم منه أيضًا أن يكون سكان ذى نجب كلهم نجباء، مع أن فيهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد.

ومن شعره فى اسمه:

وأحمد سمانى كبيرى وقلما ... فعلت سوى ما استحق به الذما

وقال أيضًا:

رويدك لو كشفت ما أنا مضمر ... من الأمر ما سميتنى أبدا باسمى

أطهر جسمى شاتيًا ومقيظًا ... وقلبى أولى بالطهارة من جسمى

وقال فى كنته:

عـرفـتك جـيـدًا يا أم دفـر ومـا إن زلـت ظالمة فـزولى

دعت أبـا العـلاء وذاك مـين ولكـن الصـحـيح أبو الـنزول

يقول ذلك جريًا على عادته فى الخمول والتواضع.

وقد خلط بعض العصريين بين أبى العلاء المعرى، وأبى العلاء صاعد اللغوى، لاتفاقهما فى الكنية واشتهار كليهما باللغة، فنسب للمعرى كتابًا اسمه النصوص فى قصة ساقها، وإنما هو لصاعد وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل مؤلفاته.

* * *

فصل فى بيئته

أسرة المعرى وبيئته

كان أبو العلاء من بيت علم وقضاء، ورياسة وثراء. تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها، ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون رأسوا وساسوا، وكان فيهم الكاتب والشاعر. ولأهل المعرة اعتقاد كبير فيهم، ولواذ بهم، وفزع إليهم فى أمورهم. وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلا لتراجمهم وأخبارهم فى كتابه: "دفع التحرى عن أبى العلاء المعرى" إلا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتنقيبى عنه، فاعتمدت فى أكثر ما أذكره هنا على ما فى "إرشاد الأريب" لياقوت. و"الكوكب الثاقب"، لعبة القادر بن عبد الرحمن السلوى، وتركت كثيراً منهم لعدم تحققى من صحة أنسابهم وألقابهم، بسبب تحريف النسخ.

فمنهم "جده الأدنى سليمان بن محمد أو أحمد" الشهير بقاضى المعرة وولى أيضًا القضاء بحمص، وبها مات سنة ٢٩٠هـ وكان أبوه شاعراً.

"عمه أبو بكر محمد بن سليمان" ولى القضاء بعد أبيه، وفيه يقول الصنوبرى.

بأبى يا ابن سليمـــا ... ن لقد سدت تنوخا

وهم السيادة شبانا ... نا لعمرى وشيوخا

أدرك البغية من أضـ ... ـحى بناديك منيخا

وإرادًا عندك نيلا ... وفراتًا وبليخا[1]

---

(١) النيل بمصر، والفرات بالعراق، وبليخ - بفتح فكسر: نهر الرقة.

واجـــدًا منك مـــتى اســـتصـــ ـرخ لـلمـــجـــد صـــريـخـــا
فى زمـــــان غـــــادر الهـــــمـ ـات فـى الناس مـــســـوخـــا

"أبو عبد الله بن سليمـان" ولى القضاء بعد أخيه محـمد بن سليمان، وتوفى بحمص سنة ٣٧٧هـ. ومن شعره فى رثاء والده:

إن كـان أصبح من أهواه مطرحًا بيـاب حـمص فمـا حـزنى بمطرح
لو بان أيسـر مـا أخـفيـه من جـزع لمات أكـثـر أعـدائى من الفـرح

ورثى أبو العلاء والده بقصيدة نونية أو لها:

نقمت الـرضا حتى على ضـاحك المزن فمـا جادنى إلا عـبوس من الدجن

وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه.

"أخوه أبو المجـد بن عبد الله بن سـليمان" كـان أسن من أبى العلاء، ومن شعره فى الزهد:

كـرم الـمـهـيـمن منتـهـى أملى لا نيـــتـى أجـــر ولا عـــمـلى
يا منفـــصـــلا جلـت فـواضـله عن بغـيـتى حـتى انتـهى أجلى
كم قـــد أفـضـت على من نـعم كم قـد ســتـرت علـى من زلل
إن لـم يكـن لـى مـــــا ألوذ بـه يوم الحـساب فـإن عـفـوك لى

"أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان" كان شاعرًا كأبيه وأخويه أبى المجد وأبى العلاء، ومن شعره:

قـالـوا نراه ســلا لأن جـفـونه ضنت عـشـيـة بيـننا بدمـوعـهـا
ومن العـجائب أن تـفيض مـدامع نار الغـرام تشب فى ينبـوعـهـا

وله فى الشمعة:

وذات لون كلونى فى تغييره ... وأدمع كدموعى فى تحدرها

سهرت ليلى وباتت لى مسهرة ... كان ناظرها فى قلب مسهرها

قلت: ومهما قيل فى الشمعة، فليس لقصيدة القاضى ناصح الدين الأرجانى ضريب فى هذا الباب، فقد بز بها من تقدمه واعيًا من بعده إذ يقول:

نمت بأسرار ليل كان يخفيها ... وأطلعت قلبها للناس من فيها

سفيهة لم يزل طول اللسان لها ... فى الحى يجنى عليها ضرب هاديها

غريقة فى دموع وهى تحرقها ... أنفاسها بدوام من تلظيها

تنفست نفس المهجورة أذكرت ... عهد الخيط فبات الوجد يبكيها

يخشى عليها الردى مهما ألم بها ... نسيم ريح إذا وافى يحييها

كأنها غرة قد سال شارحها ... فى وجه دهماء يزهاها تجليها

أو ضرة خلقت للشمس حاسدة ... فكلما حجبت قامت تحاكيها

لها غرائب تبدو من محاسنها ... إذا تفكرت يومًا فى معانيها

فالوجنة الورد إلا فى تناولها ... والقامة الغصن إلا فى تثنيها

صفر غلائلها حمر عمائها ... سود ذوائبها بيض لياليها

تحمى الليالى نورًا وهى تقتلها ... بئس الجزاء لعمر الله تجزيها

ولولا خلاف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها.

وأتى بعد أبى العلاء جماعة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء، وأضرب عن ذكر غيرهم اختصاراً، وغالبهم تولوا القضاء بالمعرة، وكفر طاب وحماة، ومنهم من تولى ديوان الإنشاء.

وإنما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم فى النسخة.

❊ ❊ ❊

فصل فى مولده ووفاته وحليته

مولده وصفته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣هـ. وعمى بالجدرى أول سنة ٣٦٧. غشى يمنى عينيه بياض، وذهبت اليسرى جملة. وكان يقول لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأنهم ألبسونى حين جدرت ثوابًا معصفرًا، لا أعقل غير ذلك. وقال فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة: (وقد علم الله أن سمعى ثقيل، وبصرى عن الإبصار كليل، قضى علىّ وأنا ابن أربع، لا أفرق بين البازل[1] والربع[2]، فلا وجه إذًا لمن زعم أنه ولد أكمه.

وحكى السلفى عن أبى محمد الإياد أنه دخل مع عمه علىّ أبى العلاء يزوره فرآه على سجادة لبد وهو شيخ. قال: فدعانى ومسح على رأسى وكنت صبيًا، وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداهما بارزة والأخرى غائرة جدًا، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم.

ونقل الثعالبى عن المصيصى الشاعر، قال: رأيت بمعرة النعمان عجبًا من العجب، رأيت أعمى شاعرًا نظيفًا يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر.

---

(١) البازل من الجمال الذى بلغ تسع سنين، وليس بعده سن تسمى.

(٢) والربع - كصرد: الفصيل ينتج فى الربيع، وهو أول النتاج، فإذا نتج فى آخر الشتاء فهو: هبع، ومراد أبى العلا: لا أفرق بين الكبير والصغير.

قال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز، وعند كلامه على القدس وما فيها: "ودخلنا إلى المدرسة المسماة بالفخرية، وهى فى غاية من الحسن والإتقان، وكمال البهاء وكمال البنيان وفيها جملة من الكتب، ورأينا فيها ديوان أبى العلاء المعرى وشرحه، ورأينا هناك مكتوبًا له هذين البيتين وهما قوله:

قالوا العمى منظر قبيح ... قلت بفقدى لكم يهون[1]

والله ما فى الأنام شىء ... تأسى على فقده العيون

ويناسبه قوله أيضًا:

أبا العلا يابن سليمان ... إن العمى أولاك إحسانا

لو أبصرت عيناك هذا الورى ... ما أبصرت عيناك إنسانا

انتهى كلام الشيخ. والبيتان الأولان قد اختلفوا فى قائلهما، فنسبهما الصفدى فى شرح لأمية العجم ج، ص ٢٨٤ لأبى العلاء كما ذكَر الشيخ، ولكن روايته (ما فى الوجود(بدل (ما فى الأنام).

ونسبهما الشريشى شرح المقامات لبشار بن برد، وروايته (ما فى البلاد) ونسبهما الوطوط (فى الغزر والعرر ص ١٦١) لأبى العيناء، وروايته (والله ما فى الأنام حر) والله أعلم والبيتان لم أجدهما فى شعر أبى العلاء، ولعلهما من شعره المفقود:

فإن قيل: كيف يحمد الله على العمى،-وهو القائل فى عكسه يتمنى الإبصار:

---

(١) المغرب لابن سعيد ١٨، تاريخ آخر من ٩١: قالوا العمى منظر قبيح الخ فسبها لمنصور ابن إسماعيل الفقيه.

فليت الليالى سامحتنى بناظر يراك ومن ولى بالضحى فى الأصائل

فلو أن عينى متعتها بنظرة إليك الأمانى ما حلمت بنائل

قلنا: ليس هذا من التناقض فى شىء، ولكن مقام مقال لأنه أبان فى الأول عن مذهبه ورأيه فى الوجود" وجرى فى الثانى على طريقة الشعراء فى مدائحهم إذ كان المقام يقتضيه. ومن هذا تلعم فرق ما بين شعرية فى "سقط الزئد واللزوميات لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين: وإن صحت نسبة البيتين السابقين لأبى العيناء كما ذكر الوطواط، فقد جرى على مثل هذا أيضًا فى قوله للمتوكل وقد سأله عن أصعب مر عليه فى فقد بصره فقال له: فقدى لرؤيتك يا أمير المؤمنين.

ومن قول أبى العلاء فى عماه، وهو مما رواه له الصفدى:

سواد العين زار سواد قلبى لتفقا على فهم الأمور

يشير بذلك إلى أن العميان عوضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ، وقريب منه من ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما وكان أصيب فى بصره فى آخر عمره:

إن يأخذ الله من عينى نورهما ففى فؤادى وقلبى منهما نور[1]

قلبى ذكر وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم بالقول مشهور

وغاية الغايات فى هذا الباب قول بشاربن برد فيمن عيره بالعمى، وإن كان من غير هذا المعنى:

---

(١) فى إرشاد الأديب جـ ٧ - آخر ص ٧٠: نسبهما . . لأبى العيناء.

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم ... وليس بعار أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى ... فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة ... وإنى إلى تلك الثلاث فقير

ومن طرائف أبى العلاء أنه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العزيزى فى شرح ديوان المتنبى، وقرئ عليه، أخذ الجماعة فى وصفه، فقال: كأنما نظر المتبنى إلى بلحظ حيث يقول:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

وكان أبو حزم مكى بن زياد المقرى الضرير الملقب - بصائن الدين يتعصب لأبى العلاء، ويطرب إذا قرئ عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب، فسلك مسلكه فى النظم: كذا ذكرا بن خلكان نقلا عن ابن المسترفى.

وفاته:

وتوفى رحمه الله يوم الجمعة، ثالث وقيل ثانى وقيل ثالث عشر ربيع الأول سنة ٤٤٩هـ بالمعرة[1] فى خلافة القائم العباسى، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة، ومرض ثلاثة أيام، ولم يكن عنده غير بنى عمه، فقال لهم فى اليوم الثالث: اكتبوا عنى، فتناولوا الدوى والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب، فقال لهم القاضى أبو محمد عبد الله التنوخى:

أحسن الله عزائكم فى الشيخ فإنه ميت. فمات من غده، ودفن فى ساحة من دور أهله. قال القفطى:

(١) فى تاريخ ابن الشمنة بحاشية الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ١٦١: وفاة أبى العلاء وشى من خبره.

أتيت قبره سنة خمسين وستمائة، فإذا هو فى ساحة من دور أهله وعليه باب، فدخلت فإذا القبر لا احتفال به، ورأيت عليه خبازى يابسة. والموضع على غاية ما يكون من الشعث والإهمال.

وقال الذهبى: وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطى، فرأيت نحوًا مما حمى انتهى. ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه:

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

ونقل الصفدى عن خط علاء الدين الوداعى قال. زرت قبره بالمعرة رحمه الله تعالى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة، ولم أر عليه شيئًا من ذلك، وقد دثر ولصق بالأرض، وعملت هذين البيتين:

قد زرت قبر أبى العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان[1]

رسألت من غفر الخطايا أنه يهدى إليه رسالة الغفران

قلت: وقبره معروف إلى اليوم أى سنة ١٣٢٧ بالمعرة، ولأهلها اعتقاد كبير فيه، ويزعمون أن الماء إذا بيت فى قارورة عند قبره، وشربه فى الغد صبى به حبسة فى لسانه، أو بلادة فى ذهنه، زال ذلك عنه ببركة أبى العلاء.

ونقل ياقوت فى "إرشاد الأريب" عن ابن الهبارية، أن السبب فى وفاة أبى العلاء مكاتبات جرت بينه وبين أبى نصر بن أبى عمران داعى الدعاة بمصر، دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب، ووعده على الإسلام خيرًا من بيت المال، فلما علم أنه يحمل - للقتل أو الإسلام - سم نفسه فمات. قال ياقوت: وقد ظفرت بتلك الرسائل، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب إليه

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٨: معرة حمص هى معرة النعمان نسبت إليه بعد ذلك.

ابن الهبارية. انتهى. وأقول: هذه الرسائل هى التى لخصها ياقوت فى كتابه المذكور، وقد ظفرت بها أنا أيضًا، وهى عندى تامة فى نسخة مخطوطة، وليس فيها شيء من ذلك. وبعد فأى إسلام كان يريده منى داعى الدعاة، وهو رئيس الباطنية فى الدولة الفاطمية، والداعى إلى مذهبهم، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان. ومن راجع دعواتهم فى خطط المقريزى علم كيف كانوا يأخذون الداخل فى مذهبهم بتكشيكه فى دينه أولا، ثم الخروج به رويدًا رويدًا من الإسلام، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد. فهل كان ما عليه هؤلاء القوم هو الإسلام فى نظر ابن الهبارية حتى يتبجح بهذه الدعوى؟؟

وكان رحمه الله قصير القامة، نحيف الجسن ضعيفه، مشوه الوجه بآثار الجدرى، ومنى فى آخر عمره بالإقعاد، ولما مات خم عنده قبره فى أسبوع واحد مائة ختمة، وفى رواية مائتان، واجتمع عليه خلق كثير، وأنشد أربعة وثمانون شاعرًا مراثيهم فيه. منها قصيدة طويلة لتلميذه على بن همام، يقول فيها:

إن كنت لم ترق الدماء زهادة ... فلقد أرقت اليوم من جفنى دما

سيرت ذكرك فى البلاد كأنه ... مسك تضمخ منه سمعًا أو فما

وترى الحجيج إذا أداروا ليلة ... ذكراك أوجب فدية من أحرمًا

قال ياقوت: كأنه يقول إن ذكرك طيب والطيب لا يحل للمحرم، فتجب عليه فدية. ورثاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعرى بقصيدة نذكر منها ما وقفنا عليه فى "الكوكب الثاقب" لعبد القادر السلوى، وهو:

سمر الرماح وبيض الهند تشتمر ... فى أخذ ثأرك والأقدار تعتذر

والدهر فاقد أهل العلم قاطبة ... كأنهم بك فى ذا القبر قد قبروا

فهل ترى بعد دار العلم عالمة ... أن قد تزعزع فيها الركن والحجر

والعلم بعدك علم فات منصله ... والفهم بعدك قوس ماله وتر

ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة المعرى بقوله:

العلم بعد أبى العلاء مضيع ... والأرض خالية الجوانب بلقع

أودى وقد ملأ غرائبًا ... تسرى كما تسرى النجوم الطلع

ما كنت أعلم وهو يودع فى الثرى ... أن الثرى فيه الكواكب تودع

جبل ظننت وقد تزعزع ركنه ... أن الجبال الراسيات تزعزع

وعجبت أن تسع المعرة قبره ... ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع

لو فاضت المهجات يوم وفاته ... ما استكثرت فيه فكيف الأدمع

تتصرم الدنيا وتأتى بعده ... أمم وأنت بمثله لا تسمع

لا تجمع المال العتيد ... من قبل تركك كل شىء تجمع

وإن استطعت فس بسيرة أحمد ... تأمن خديعة من يغر ويخدع

رفض الحياة ومات قبل مماته ... مستطوعا بأبر ما يتطوع

عين تسهد للعفاف وللتقى ... أبدًا وقلب للمهمين يخشع

شيم تجمله فهن بلحده ... تاج ولكن بالثناء يرصع

جادت ثراك أبا العلاء غمامة ... كندى يديك ومزنة لا تقلع

ما ضيع الباكى عليك دموعه ... إن الدموع على سواك تضيع

قصدتك طلاب العلوم ولا أرى للعلم بابًا بعد بابك يقرع
مات النهى وتعطلت أسبابه وقضى التأدب والمكارم أجمع

* * *

فصل فى نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشأ بالمعرة، وأخذ النحو واللغة عن أبيه، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب، وحدث عن أبيه وعن جده. ثم رحل إلى بغداد، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصرى. هكذا ذكر السيوطى فى "بغية الوعاة" قال: وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى، وله ذكر فى "جمع الجوامع" وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد، قصد أبا الحسن على بن عيسى الرعبى ليأخذ عنه، فلما أراد الدخول عليه، قال الربعى: ليدخل الإصطبل؛ فخرج مغضبًا ولم يعد إليه. والإصطبل بلغة أهل الشام الأعمى. قلت: وهى لفظة معربة، ذكرها الخفاجى فى "شفاء الغليل" قال: ولذا قال ابن عباد: جروا الإصطبل فى قصته مع المعرى. ولعل الخفاجى أراد المرتضى، ووهم فذكر ابن عباد. وستأتى القصة.

وذكر أبو الفداء أنه دخل بغداد واستفاد من علمائها، ولم يتلمذ لأحد أصلا، وهو يخالف ما ذكره السيوطى وابن خلكان وغيرهما. وكان قد رحل أولا إلى طرابلس، وبها خزائن كتب موقوفه؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم. ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته. وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سنة ٣٩٨، ودخلها ثانيًا سنة ٩٩. وأقام بها سنة وسبعة أشهر، لا يستقيم مع ما سيرد عليك فى فصل مؤلفاته، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠.

وقبل قدومه إلى المعرة بمدة يسيرة ماتت أمه، وأصيب فى مال لهن

فرثاها بقصيدة ميمية طويلة، وأخرى بائية، وكتب إلى بغداد صديقه وتلميذه القاضى أبا القاسم على المسحن التنوخى بقصيدة ضمنها أغراضًا يقول فيها معتذرًا عن مفارقته العراق:

أثارنى عنكم أمـــــــران والدة

لم ألقهـا وثالا عـاد مسـفـوتا[1]

أحياهما الله عصر البين ثم قضى

قبل الإياب إلى الذخرين أن موتا

لولا رجاء لقائيهـا لما تبعت

عسى دليلا كسر الغمد أصليتا[2]

ولا صبحت ذئاب الإنس[3] طاوية

تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتًا[4]

ولما استقر بالمعره لزم داره، وشرع فى التصنيف والإفادة، وأخذ عنه الناس، وقصده الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار، وسمى نفسه: "رهن المحبسين" يعنى حبس نفسه فى المنزل، وحبس بصره بالعمى.

---

(١) المسفوت: القليل البركة.

(٢) الإصلبت: الماضى الصقيل.

(٣) يريد بذئاب الإنس: اللصوص.

(٤) المسبوت: من السبات، وهو النعاس.

وما فتئ وهو بعيد عن بلده، يحن إليه ويشتاقه، ويذكره فى شعره، وفيه يقول:

سرى برق المعرة بعد وهن ... فبات برامة يصف الكلالا
شجا ركبًا وأفراسًا وإبلاً ... وزاد فكاد أن يشجو الرحالا
بها كانت جهادهم مهارى ... وهم مردًا وبزلهم فصالا

وقال:

فيما برق ليس الكرخ دارى وإنما ... رمانى إليه الدهر منذ ليالى
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال

وقال أيضًا:

متى سألت بغداد عنى وأهلها ... فإنى عن أهل العواصم سأل
وماء بلادى كان أبحع مشريًا ... ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد، عز عليه فراقها، وفراق أودائه فيها، فقال من قصيدة يجيب بها على النهاوندى:

وردنا ماء دجلة خير ماء ... وزنا أشرف الشجر النخيلا
وزلنا بالغليل وما اشتفينا ... وغاية كل شىء أن يزولا

ونظم فى توديعها قصيدة فيها:

أودعكم يا آل بغداد والحشا ... على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضن[1] لم يستقل وإنما ... تحامل من بعد العشاء على ظلع

(١) يقال ضنى كرضى وضنن: مرض.

فبئس البديل الشام منكم وأهله　　على أنهم قومى وبينهم ربعى

ألا زودونى شربة ولو أننى　　قدرت إذا أفنيت دجلة بالجزع

وأنى لنا من ماء دجلة نغبة　　على الخمس من بعد المفاوز والربع

وقال من أخرى:

لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم　　رجال ولكن رب نصح رب مضيع

فلا كان سيرى عنكم رأى ملحد　　يقول بيباس من معاد ومرجع

أى: لا كان سيرى عنكم ذهابًا بلا إياب. أخرجه مخرج الدعاء.

* * *